دور المرأة في التواصل الاجتماعي والديني بطرق الحج عبر وادي النيل في الإقليم الشّمالي (أمونة بت عبود نموذجاً)

د. إبراهيم الخضر الحسن*

مستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على بعض نتائج ما حدث من حراك وتنقل في طريق الحج الذي سلكه القادمون من غرب إفريقيا عبر وادي النيل، وما جرى من تواصل اجتماعي وديني مع بعض مواطني وأهالي الإقليم الشمالي، بجانب التعرف على ما قامت به أمونة بت عبود من أعمال لإيواء وضيافة هؤلاء الحجيج، وتوفير الطعام والكسوة لهم، بل والارتباط الأسري مع بعضهم.

استعان الكاتب بعدد من المراجع والمخطوطات، وأجرى عدداً من المقابلات مع بعض ذوي المعرفة بحراك التكرور في سفرهم الراجل عبر منطقة الدراسة التي انتهت بعدد من النتائج وخاتمة وقائمة للمراجع.

Abstract

This study aims at exploring some of the results, which happened from mobility and movement in the way of pilgrimage that has been undergone by the comers of west Africa via the Nile valley. The social and religious contact with some of the locals and citizens of the northern region has also been investigated, as well as knowing the effort of Amuna bit Aboud in providing shelter and hospitability for those pilgrims and providing them with food and clothes, in addition to the familial affiliation with some of them.

The author utilized a number of references and manuscripts and undertaken some interviews with some of the knowledgeable people about the mobility of Takroor in their on-foot journey through the region of the study. A number of findings and conclusion has been proposed and a list of references was incorporated.

* عميد كلية التربية – جامعة إفريقيا العالمية / نوفمبر /٢٠١٦م

مقدمة:

أمونة بت عبود إحدى رائدات التعليم الديني في سودان عهدي الحكم السناري والتركي. كان لها دور في ذلك مع أخريات من بنات جيلها، بجانب نشاطها الواضح في استضافة حجاج غرب إفريقيا ممن كانوا يقصدون مكة عن طريق تشاد، فوادي هور، إلى منحنى النيل عند الدبة، فكورتي، ثم عبر صحراء بيوضة إلى عطبرة فسواكن.

حدث تنقل كثيف عبر هذا الطريق وغيره من الطرق الأخرى، أدى إلى وجود أعداد كبيرة من أولئك الحجاج بالإقليم الشمالي – بولايتي نهر النيل والشمالية – كما أدى إلى تواصل اجتماعي نتج عنه تزاوج ومصاهرة واستيطان وانتماء لطرق صوفية كالتجانية وغيرها.

مشكلة الدراسة :

يبدو للباحث أن هناك نقصاً في المعلومات وقلة في الأخبار عما جرى من إقامة وحراك وتنقل لحجاج غرب إفريقيا عبر هذه الطرق، وعما حدث من نتائج وآثار في الحياة الاجتماعية والعلاقات الأسرية للسكان في فضاء منطقة الدراسة الحالية. بجانب عدم وضوح وبيان دور المرأة التي كان لها مكانة متقدمة في تقديم خدمات التعليم والإيواء للطلاب واستضافة الحجاج القادمين من الغرب الإفريقي، وذلك إبان العهدين السناري والتركي.

ومن هنا نشأ السؤال المحوري لمشكلة هذه الدراسة التي يود الباحث أن يكشف بها بعض جوانب ما حدث من تواصل اجتماعي وديني في تلك المرحلة التي عاشت فيها أمونة بت عبود وما قدمته بشأن ذلك التواصل. والسؤال هو:

ما دور أمونة بت عبود في التواصل الاجتماعي والديني لطريق الحج بوادي النيل في الإقليم الشمالي؟

أسئلة الدراسة :

١. ما الدور التعليمي والديني للحجاج الذين نزلوا بالإقليم الشمالي عبر تشاد ضيوفاً في طريقهم إلى مكة المكرمة؟
٢. من هي أمونة بت عبود – مولداً ونشأة؟
٣. هل كان لأمونة بت عبود ورصيفاتها دور تعليمي ديني في عهدي الحكم السناري والتركي؟
٤. هل كان طريق الحج عبر وادي النيل في الإقليم الشمالي فرصة للتواصل الاجتماعي.. وبعبارة أخرى:
   أ- ما العلاقة الاجتماعية التي تربط بين أمونة بت عبود والشريف عبد الرحمن الشنقيطي؟
   ب- ما العلاقة الاجتماعية التي تربط بين أمونة بت عبود والشيخ أحمد الهدي التجاني؟
٥. هل كان طريق الحج عبر وادي النيل في الإقليم الشمالي فرصة لأمونة بت عبود لإكرام واستضافة الحجاج التكرور من غرب إفريقيا في تكاياها بوادي بشارة غرب شندي؟

طريق الحج من غرب إفريقيا عبر تشاد إلى وادي النيل

يشير الوجود الكثيف والأعداد الكبيرة من أبناء غرب إفريقيا في المساحة الممتدة على طول نهر النيل بمنطقة الإقليم الشمالي إلى أن حجاج غرب إفريقيا وخاصة من الشناقيط وغيرهم من أبناء المغرب

العربي قد سلكوا طريقهم من ديارهم إلى تشاد عبر الصحراء وصولاً إلى النيل عند منطقة دنقلا والقولد، أو عبر منطقة كرب التوم في الولاية الشمالية بالقرب من الحدود السودانية التشادية إلى وادي هور وصولاً إلى منحنى النيل عند منطقة الدبة ومنها بمحاذاة النيل إلى كورتي، ومنطقة العونية بالحلة البيضاء، ثم عبر صحراء بيوضة شرقاً إلى أم الطيور والمتمة فعطبرة إلى سواكن ثم عبر البحر الأحمر إلى بلاد الحجاز.

هذا وهناك طرق أخرى كثيرة مشهورة ومعروفة قد سلكها حجاج آخرون غير هذا الطريق عبر تشاد ثم دارفور فأم درمان وبمحاذاة النيل حتى عطبرة فسواكن.

ويلاحظ أن القرن التاسع عشر الميلادي في عهدي الحكم السناري والتركي شهد توافد أعدادٍ غفيرة من هؤلاء الحجاج، تعبر بلاد السودان في طريقها لمكة، ويبقى جزء كبير منهم لفترات قد تطول أو تقصر، يعيشون بين أهالي تلك المناطق التي وصلوا إليها على ضفتي النيل في الإقليم الشمالي (ولايتي الشمالية ونهر النيل)، يشتركون ويتفاعلون معهم في ممارسة أنشطة حياتهم المختلفة، وقد يقومون بأدوار تعليمية في الخلاوى والمساجد، وبعضهم قد يمارس ضروباً من التجارة البسيطة المتجولة كبيع الخرز، والعطور، والختم والأسورة وبعض حاجات النساء كإبر الخياطة ودهان الشعر وغيرها. وبعد أن يقضي الحاج فترة من الزمان متنقلاً من منطقة إلى أخرى؛ يصل إلى هدفه في مكة المكرمة حيث البيت الحرام.

الدور التعليمي والديني للحجاج الذين نزلوا بالإقليم الشمالي ضيوفاً في طريقهم إلى مكة:

يمكن للباحث ولأغراض هذه الدراسة أن يميز بين نوعين من حجاج الحزام السوداني الممتد غرباً حتى الأطلسي والذين سلكوا طريق وادي نهر النيل الشمالي إلى الحجاز في فترة الحكم السناري والتركي وهما:

1/ الحجاج الراجلون (التكرون):

يذكر (عبيد: ٢٠٠١،١٢٦) أن معظم حجاج غرب إفريقيا يأتي الفرد منهم إلى الحج راجلاً، وقد أصطلح أهل السودان على تسمية هذه الطريقة في السفر الراجل (تكرنة)، نسبة إلى قبائل التكرور أو التكرون.. ويقولون فلان (متكرن) و(مَتَكْرِرْ) أي جاء راجلاً، يقول حاج الماحي، في (ديوانه):

- تحلحل قيدي أقوم تكرور (ص١٣٨).
- متكرر بالطريق مجرور (ص١٣٩).
- مِنْ جَرّالو تكرورية (ص٥٠٩).
- متكررين بالطريق قُر (ص٣٣٥).

ولذلك فإن مسيرة الحاج ليقطع أرض السودان بهذه الطريقة قد تكلّفه عدة سنوات، يتعرض فيها لظروف الحياة العادية من مرض، وموت، وفقر، وجوع، وغيرها، ولذلك فإن عدداً من هؤلاء قد يقيم إقامة دائمة قبل أن يدرك الحج، وقد يقيم بعد عودته من الحج.

يشير الباحث إلى أن أعداداً غفيرة من هؤلاء التكرون كانوا يقيمون طويلاً عند أمونة بت عبود، التي كانت تستضيفهم في دواوين خاصة، وسكن مريح، وأمان وسلامة، وتقدم لهم الإعاشة مدة بقائهم

عندها – كما سيتضح ذلك لاحقاً في هذه الدراسة.

2/ العلماء الشناقيط:

بقي عدد كبير من هؤلاء العلماء الشناقيط مدة في إقليم وادي النيل الشمالي قبل أن يغادروا إلى مكة.. بعضهم عاش في شماله الأوسط بمركز مروي، وآخرون في جنوبه بوادي بشارة وبربر بمديرية شندي وغيرها.

تتحدث الروايات عن أن الشيخ أحمد المغربي التجاني حضر إلى منطقة (أوسلي) والتقى بالشيخ أحمد الهدي التجاني وصحبه إلى منطقة الخندق، ولقنه أسرار وأوراد الطريقة التجانية، حتى غدا علماً من أعلامها، ثم عاد به إلى أهله في أوسلي.

يقول (خير الله: د. ت، ٢٥) ولقد سمعت من شيخنا الفكي محمد مشو – الخليفة الأول للشيخ الهدي – أن الشيخ الهدي شيخه في التربية والرياضة والعلم؛ هو الشريف أحمد المغربي الذي أدخله الخلوة، ومكنه من السر، وجمعه بالحضرة النبوية.

يذكر (سعيد: ٢٠١٦م في مقابلة مع الباحث) أن من أبرز السمات العربية التي تحلى بها العونية في منطقة الحلة البيضاء، المجاورة لمدينة كورتي سمة الكرم، والترحاب، وقبول الأضياف، وعابري السبيل من حجاج غرب إفريقيا، ومن ذلك أن عدداً غير يسير نزلوا بديار العونية، والمناطق المجاورة لها على امتداد نهر النيل وضفتيه الشرقية والغربية، ومن أشهر هؤلاء في هذه الديار الشيخ محمد حسين الشنقيطي؛ الذي مكث فترة طويلة وسط سكان هذه القرية معلماً وفقيهاً، وتجول وتعرف على كثير من أهل المنطقة وعلمائها، وجالس الشيوخ وكبار القوم، وعامتهم، وسادة الطرق الصوفية، وألّف سفراً قيماً عن أنساب هؤلاء وأسرهم، وكان يجالس السيد محمد علي العجيمي في خلوته لفترات قد تطول – يذهب إليه من الحلة البيضاء حيث سكنه الدائم وأبناؤه إلى البرصة حيث مقر ودائرة السيد العجيمي –، وكان قد تزوج من أسرة الأشاميق، وهي من أكبر فروع العونية، وأرسخها قدماً، تزوج من ابنتهم وادي النعيم بنة أحمد بابكر أشميق، ولما توفيت تزوج من أختها آمنة، وله منها نسل مبارك غزير، شكَّل أساساً متيناً للعلاقة بين العونية وأسرة كبيرة مشهورة هي أسرة محمد حسين الشنقيطي، الذي انتقل بعد ذلك إلى السعودية قنصلاً لبلاده بعد استقلالها.

يقول (خير الله: ص٢٣) جاء الشيخ الهدي من حضرة الفناء إلى حضرة البقاء على يد كفيله العارف بالله سيدي محمد بن المختار الشنقيطي... فجزى الله خيراً السيد محمد المختار الشنقيطي على كفالته وملاحظته للشيخ الهدي، وأنسه وبخله به، فلله دره من عارف.

يبدو للباحث أن هذا اللقاء انعقد بينهما في بربر بعد هجرة الشيخ الهدي إليها، من بلده أوسلي لتلقي العلم والفقه على يد شيخه محمد الخير خوجلي وشيخه سعد الدين الفلاتي. وذلك لأنه – خير الله – يذكر (ص٥٠) أنه سمع فضيلة مولانا الشرعي الشيخ أحمد الإمام الجعلي الكبوشابي الذي كان قاضياً بمحكمة رفاعة الشرعية يخبر عن نفسه ويقول: إنه زار مسجد بربر، واجتمع بشيخه الشيخ محمد الخير الذي قرأ عليه العلم، وكان معه محمد مختار الشنقيطي، والشيخ أحمد الهدي في المسجد في آن واحد.. وقد طلبت – الكبوشابي – أخذ طريق سيدي أحمد التجاني من شيخي محمد خير، فدلني على

السيد محمد المختار الشنقيطي، والذي بدوره دلني على الشيخ الهدي، فأخذ بكفي وأعطاني طريق سيدي أحمد التجاني، ولله الحمد ورضي الله عن الجميع وعنا بهم آمين.

يود الباحث الإشارة إلى أن هذا التواصل والتدافع من أهل شنقيط وبقاءهم في المناطق التي ذكرت آنفاً لفترات إنما يشير إلى تأكيد سمة الكرم والترحاب، وقبول الأضياف عند أهل تلك الجهات التي تحدث عنها بروفيسور عمر أحمد سعيد، كما أنه إشارة إلى أن هؤلاء الضيفان من الحجيج العابر بالفعل قد طاب لهم المقام لدرجة أن بعضهم بقي حتى وفاته كما حدث للشريف محمد مختار الشنقيطي؛ الذي توفي بأم جراجر عام ١٢٩٩هـ، بعد أن زار دارفور ومصر والحجاز، وعاد قافلاً إلى بربر في الإقليم الشمالي.

أمونة بت عبود؛ المولد والنشأة:

يذكر (علي: ٢٠٠٠،٥) إن والدها عبود من سلالة وصيف بن سوار بن شايق.. ووصيف جد الكفونجة أبناء محمد، والظليطاب أبناء حمد، والزراقنة أبناء حامد، وهم حضر وبادية.. ومن أشهر أفراد فرع الكفونجة الشيخ أحمد الهدي، أما أمونة فمن فرع الظليطاب والدها عبود شيخ بادية السوراب.

ويذكر (الحسن: ٢٠١٢م، ٥٨) أن أختها مهيرة بت عبود هي التي اشتهرت بالفروسية وتحريض جيوش قبيلتها على قتال جيش إسماعيل باشا بشعرها الحماسي الرصين بعد أن تمتطي ناقتها وتتقدم أفراد قبيلتها لتشترك وتخوض معهم قتال الأعداء – قائلة:

الليلة استعدوا وركبوا خيل الكر

وقدامن عقيدن بالأغر دقّر

جنياتنا الأسود الليلة تتنبر

ويا الباشا الغشيم قول لي جدادك كر

يذكر (العاقب: ٢٠١٤، ٥٨) أن أمونة بت الشيخ عبود لها إخوة كثر، منهم العطا، محمد خير، خرسهم، محمد، الفضل، أحمد، الشيخ، سليمان. وأخواتها فاطمة، مهيرة، وجب، مزار، عائشة، الحمراء، غوالي، هند. وقد تناسلت هذه العائلة وتفرعت في الأنحاء السودانية وأكثرهم بود حامد، وكبوشية، وشندي، وقندتو، وحجر الطير، وحجر العسل، ومديسيسة ووادي بشارة وكسلا وسواكن وغيرها.

ويشير الباحث إلى أن أمونة هي جدة للرئيس السوداني الأسبق إبراهيم عبود (١٩٥٨، ١٩٦٤) واسمه إبراهيم البشير أحمد عبود، وأحمد هذا أخ لأمونة بت عبود، وقد سكنت أسرة إبراهيم عبود بكبوشية، وعاشوا فيها، ولهم أطراف بكسلا.

هاجرت أمونة مع زوجها محمد الأزيرق، وسكنت بمديرية نهر النيل مع جمع غفير من أهلها السوراب والعونية بعد موقعة كورتي الأولى ١٩٢٠م، وأصبحوا من سكان تلك الديار ومن هؤلاء أولاد الشيخ العباس بن الشيخ الهدي، وإخوانه وأحفاده، وأولاد بليلو أحمد ومحمد وعلي، وأولاد عبود أحمد ومحمد وأمونة، وأولاد ود بادي، وعكود، والعنيناب، وآخرون غيرهم من الكفونجة والظليطاب والزراقنة وجميعهم سوراب، كما هاجر معهم أبناء عمومتهم العونية وآل باسبار، وود زياد، والباشاب، وغيرهم.

تقول (كامل: ٢٠١٤، ص٨) أما أمونة بت عبود فتعتبر إحدى الشخصيات النسائية التي لم تسلط عليها الأضواء، رغم ما قامت به من دور في نشر العلم، وقد سمعت قصة أمونة زوجة الشيخ الإزيرق السورابي الشايقي وأحد السناجك الأربعة الكبار في التركية من الأستاذ المرحوم عمر الحسين (باحث التراث ومحقق ديوان حاج الماحي، وصاحب القصيدة المشهورة:

شدولك ركب فوق مهرك الجماح تمساح الدميرة المابيكتلو سلاح)

وذكر لي – للكاتبة رجاء – أن حجاج غرب إفريقيا كانوا يسمون بالتكارين، وكانوا يكنون لأمونة بت عبود احتراماً كبيراً ويقولون: نحن نعرف مكةَ والمدينةَ وأمونةَ وينطقون آخر كل كلمة بتاء مفتوحة وألف بعدها... (مكتَا والمدينتَا وأمونتَا).

ويذكر (عثمان: ٢٠١٦، رسالة للباحث) أن السوراب كانوا أهل فروسية، واهتمام بكرائم الخيل، والمكي ود نصر السورابي الظليطابي – قوم أمونة – صاحب الخيول المسماة (بنات الدروع)؛ كانت لها بقية مع الشريف يوسف الهندي، وقصة ذكرها، وذكر مرثية فاطمة بت جبرين للشيخ المكي، ومرثية النعمة بت الشيخ محمد علي خرصهم السورابي لوالدها ذكرت في مخطوط: الغُنا والشعر الورقة ١٦٢–١٦٣.. انتهى.

الدور الاجتماعي والتعليمي لأمونة بت عبود ورصيفاتها في العهدين السناري والتركي:

النساء ممن عاصرن أمونة بت عبود في أواخر العهد السناري وبدايات العهد التركي في السودان، ما كن يكتفين بمشاركة الرجل في بعض نشاطات الحياة الاجتماعية فحسب، بل كن يُسهمن معه في تذليل كافة مصاعبها.. وكنَّ يُمارسن أضراباً متباينة من المهام الاقتصادية والتعليمية والدينية.

يذكر (الحسن: ٢٠١٢م، ص ص٢٤، ٢٥) أن زينب بنت رباح السورابية في وادي عريس – كما يقول ابنها البخاري ود عجب – كانت تعمل راعية إبل وماعز وضان.. وتستخرج من ألبانها الزبد والسمن، وتصنع من بقية اللبن إقطاً تحتفظ به في الرمضاء لأوقات الشدة والقحط ونفوق السعية. وكانت (تفتل) حبال الصوف والشعر، وتوسم الإبل، وتفصد، وتحجم، وهي (داية) نساء الوادي، وأنعامه، وكانت توصي المرضى وتقول لهم: هزيمة المرض والحصول على الشفاء العاجل في شرب اللبن (الرايب)، وأكل الثوم، والبلح، والقرع، والبصل، ولبن ألبل، والبعد عن السهر، والهم، والجوع، ونوم الصباح، والخيانة، ومعصية الله، والراجل الفالح؛ لايهدم ولا يخرب، ولا يوسوس ولا يحسد، بل يبني ويعمر، ويصلح ويملِّح.

ويبدو أن المرأة في العهدين السناري والتركي بجانب ما ذكر عن مهيرة بت عبود وزينب بت رباح كانت تمارس دورها في الحرب بصورة أوسع، فزوجة طه أب سدر شاركته ورافقته في حملة الشلالي باشا واستشهدت وهي تحمل مسدسها.[١]

كما خرجت صفية مع والدها الملك صبير لملاقاة إسماعيل باشا الذي تمكن من أسرها، ثم ردها إلى والدها عزيزة مكرمة، مما كان سبباً من أسباب وقف الحرب بين الطرفين، والصلح بينهما،

---

[١] انظر زلفو: شيكان، ص٤٤.

وانخراط بعضهم في الجندية التركية معه.[٢]

يقول (النور: ١٩٧١، ص ص٢٥، ٢٦) وبرز دور المرأة حينذاك لتحريك الرجال، واشتهرت مهيرة وقامت بما قامت به عديلة أم عثمان ود حمد في حربه ضد الفونج، فكان الشعر بمثابة صيحات الحرب وإثارة الحمية..

أما الدور التعليمي للمرأة فتذكر (المهدي، ورقة عمل، ٢٠١١م) إن المرأة في القرن التاسع عشر؛ كانت تتعلم دينياً خارج المدينة الرئيسة، وخارج عباءة الحكم التركي، أو أن المجال كان مهيأً للراغبات في التعليم الديني، وكان للمرأة أن تنخرط في صفوف التصوف، ولعل هذا هو الاتجاه الأكثر شيوعاً في ذلك الوقت.

تقول (حسن، ٢٠١٢م، ص ص٤٥-٤٩) إن عهد سلطنة سنار شهد دوراً للمرأة في التعليم... فكانت عائشة بنت القدال تعلم القرآن في مكتب (خلوة) قريباً من جبل أولياء. واشتهرت فاطمة بنت جابر نظيرة لإخوتها أولاد جابر في العلم والدين... وكانت لها خلوة في جزيرة (ترج) شمالي مدينة مروي الحالية. كما تواردت المعلومات عن زينب بنت أحمد بن عيسى الأنصاري التي تعلمت الفقه وعلوم القرآن من أشقائها، وكانت تدرس في مسجد والدها بالجزيرة في فترة الحكم التركي الذي شهد اشتغال المرأة بالتصوف، كما كان الحال عند الفقيه (أبي دليق) الذي خلّف ابنته عائشة لتتولى أمر التدريس في خلوته رغم أن لها أخاً لم يقع الاختيار عليه.

يقول (الطيب: ١٩٩٩م، ٣٤٩) اشتهر في ذلك الزمان الذي عاشت فيه أمونة بت عبود في وادي بشارة – اشتهرت – الشيخة فاطمة بت أسد في قرية (المطمر) – بين أم علي والمحمية – كانت تحفظ القرآن حفظاً مجوداً، وتعلمت الفقه، وبلغت في تعلمه مراحل متقدمة، وكان العلماء والفقهاء يقصدونها ويرحلون إليها في بلدتها التي تعرف الآن (بمطمر بت أسد) للزواج منها، ولكنها فضلت الدراسة والعلم على ذلك... وكان والدها على جانب كبير من الورع والفقه، وقد أطلق عليها اسم فاطمة بنت أسد أم الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه.

الشيخ عبد الرحمن الشنقيطي والشيخ الهدي في ضيافة أمونة:

١/ الشيخ عبد الرحمن الشنقيطي يتزوج ابنة أمونة بت عبود:

نزل الشيخ عبد الرحمن الشنقيطي ضيفاً عند أمونة بت عبود، فأكرمت وفادته، وشاهد ما تقوم به من أفضال وسخاء وإقراء للضيفان، وأعمال في سبيل راحة الحجاج العابرين، والطلاب والطالبات الذين يرغبون في حفظ القرآن الكريم وتعلم علومه. فقرر أن يكون صهراً لها.

يقول الشريف محمد[٣] (حفيد أمونة بت عبود) كانت جدتنا أمونة تقوم بكفالة الحجاج، فنزل

---

[٢] انظر د. نسيم مقار، الشايقية في السودان شعب وتاريخ، ط١، القاهرة، ١٩٩٧م. واد نجتون في كتابه: زيارة إلى بعض مناطق إثيوبيا (النوبة). (١٨٢٢، ص ص١٦٤-١٦٩).

[٣] الشريف محمد بن الشيخ أحمد الهدي وابن عائشة بنت خديجة بنت أمونة، وقد أملى هذا القول على مؤلف كتاب (الشيخ أحمد الهدي.. تاريخه، ونشأته، ونسبه، ومناقبه)، وهو المؤلف عبد الرحمن محمد علي خير الله التجاني الفلكي.

عندها جدنا أبو والدتنا: الشريف عبد الرحمن الشنقيطي، فأكرمت نزله، وزوجته بنتها خديجة أم والدتنا عائشة، فأقام عندها بوادي بشارة حتى وضعت. يقول: وعندما أراد الشيخ عبد الرحمن الشنقيطي الارتحال إلى الحج قرر أخذ ابنته عائشة، فطلبت منه جدتها أمونة أن يتركها عندها كأمانة، تحفظها وتصونها وتقوم بكفالتها، وأبرأت ذمته من كل شيء فتركها عندها... واشترط عليها أن تتحرى في زواجها من رجل صالح... ولما صلحت للزواج طلبها عدد من الرجال فمنعتهم لعدم كفاءتهم التي اشترطها أبوها.

يرى الباحث أن هذه الاستضافة العابرة التي نتج عنها تصاهر وقران وحفدة وتواصل تُبَيِّنُ الدور الكبير للحياة الاجتماعية التي تولدت من حراك الحج الراجل والإقامة المؤقتة في الطريق إلى الحجاز.

٢/ الشيخ أحمد الهدي يتزوج عائشة بنت الشريف عبد الرحمن الشنقيطي:

بعد أن طاف الشيخ الهدي في سياحته الإيمانية الطويلة عبر الفيافي، ذهب إلى بربر والتقى بالشيخ محمد مختار الشنقيطي وأستاذه محمد خير – كما ورد سابقاً.

يقول ابنه الشريف محمد، (1250هـ – ١٣٠١هـ): الشيخ أحمد الهدي في ثالث أمره قد تولى كفالته السيد محمد مختار الشنقيطي المشهور (بود العالية).. انتهى.

ولعل الشريف محمد بن الشيخ الهدي يقصد بقوله: (في ثالث أمره) يقصد تجوال والده الشيخ أحمد الهدي في مرحلة تلقيه العلم والطريقة التجانية بعد ثلاث مراحل، قضى الأولى منها مع الشيخ أحمد المغربي التجاني في الخندق، والثانية أثناء وجوده مع أستاذه محمد خير أستاذ الإمام المهدي الذي زامل الشيخ أحمد الهدي في هذه المرحلة التي تعتبر الثانية، والتي تلقى فيها البيعة من الشيخ سعد الدين الفلاتي التجاني، وذلك قبل أن يلتقي بشيخه محمد مختار الشنقيطي. أما المرحلة الثالثة فهي المرحلة التي ذكر أنه قضاها مع السيد محمد مختار الشنقيطي – ود العالية – الذي كما ورد سابقاً أن الشيخ الهدي بقي في كفالته وملاحظته وأنسه بعد أن أجازه وأقره على تلقيه للطريقة من تلميذه الشيخ سعد الدين الفلاتي المعروف بسيبويه.[٤]

يقول (النور) توفي السيد محمد المختار الشنقيطي في قرية (أم جراجر) بريفي شندي عام ١٢٩٩هـ وقد انتشرت الطريقة على يديه في بلاد السودان ومن أبرز تلاميذه الولي الصالح الشيخ الطاهر بن التلب الحيماوي، والقاضي الشيخ أحمد عبد الرحمن، والإمام الجليل أحمد الهدي السورابي.

يقول الشريف محمد: بقيت عائشة في كفالة جدتها أمونة حتى حضرالشيخ أحمد الهدي من دار الشايقية إلى وادي بشارة، فخطب البنت من جدتها... فأجابت طلبه وزوجته بها بوكالة عمها الشريف الكوري – الشنقيطي – نزيل أم درمان، والمتوفى بها زمن المهدية، وقبره هناك يزار، عند خور أبي عنجة، بجوار سوق بانت، شمال وسط الشارع حول حائط نحو ذراعين بالقرب من محطة أبو عكر..انتهى.

---

[٤] انظر النور، الفاتح: التجانية والمستقبل، دار جامعة إفريقيا العالمية للطباعة والنشر، ط١، ١٩٧١، ص٢٢٢.

يتضح مما سبق أن الشيخ عبد الرحمن الشنقيطي تزوج من خديجة ابنة محمد الأزيرق السورابي... وابنة أمونة بت عبود، أنجبت خديجة بنتاً، وهي عائشة بنت الشريف عبد الرحمن الشنقيطي الذي تركها عند جدتها أمونة وذهب إلى حال سبيله... بعد أن شبت – عائشة – تزوج منها الشيخ أحمد الهدي التجاني، وهي زوجته الثانية – الأولى أسمها كسيبة، وهي والدة أبنائه الكبار–.

أنجبت عائشة للشيخ الهدي ولدين وبنتاً (الشريف محمد، وعبد الرحمن الذي توفي صغيراً وخديجة الصغرى). والشريف محمد هو أصغر أبناء الشيخ أحمد الهدي. وهو صاحب النص المكتوب عن سيرة والده الذي أملاه على الشيخ عبد الرحمن محمد علي خير الله التجاني الفلكي مؤلف كتاب (الشيخ أحمد الهدي، تاريخه ونشأته ونسبه ومناقبه). – كما سبق– وقد توفي الشريف محمد يوم ٢/رجب/١٣٨٧هـ، وهو حفيد أمونة بت عبود لأنه ابن عائشة بنت خديجة بنت أمونة بت عبود. وهو في ذات الوقت ابن عائشة بنت خديجة بنت محمد الإزيرق السورابي.

أما من جهة جده عبد الرحمن الشنقيطي، فهو الشريف محمد بن عائشة بنت عبد الرحمن الشنقيطي وهو الشريف محمد بن أحمد الهدي بن محمد بن زايد بن صالح وهكذا كما يعتقد البروفيسور (سعيد) فإن هذا النوع من المصاهرة بين سكان غرب إفريقيا وأهل المغرب العربي وبين أهل منطقة الإقليم الشمالي الكبير كثير متواتر، يحتاج إلى دراسة معمقة تؤطر له، وتبين آفاق هذه العلاقة التي نتجت عن ظاهرة التواصل الديني والاجتماعي لهؤلاء الحجاج الأفارقة، وهم في طريقهم إلى بيت الله الحرام.

أمونة بت عبود واستضافة الحجاج بوادي بشارة:

يشير (الطيب، ١٩٩٩م، ٣٤٤–٣٤٥) إلى أنه لم يكن يعرف شيئاً عن أمونة إلى أن وجد ذكرها في كتاب (التربية في السودان)، نقلاً عن كتاب (نزهة الألباب)، لمؤلفه رفاعة رافع الطهطاوي، ولكنه لم يعثر على الكتاب المذكور؛ إلاّ أنه عثر على مؤلف آخر لرفاعة رافع الطهطاوي تحت مسمى (الثقافة العربية في السودان)، الذي ورد فيه هذا النص عن أمونة بت عبود: قال الطهطاوي: وقد رأيت في طريقي ببلاد الشايقية بمديرية دنقلا حرم (سنجق) يدعى الملك الإزيرق، تسمى السيدة أمونة، تقرأ القرآن، ومؤسسة مكتبين – خلوتين –، أحدهما للغلمان، والثاني للبنات، كل منهما لقراءة القرآن، وحفظ المتون، وتنفق على المكتبين من كسبها بزراعة القطن، وحلجه، وغزله، وتشغيله، ولا ترضى أن يشوبه شيء من مال زوجها، وبجانب المكتبين خلوات لمن يختلي من العباد والزهاد والحاضرين من أقصى البلاد لأداء فريضة الحج الشريف، ومنزلها كالتكية للفقراء وأبناء السبيل والقاصدين بيت الله الحرام.. انتهى.

يقول الطيب في تعقيبه على هذا النص (تبين لي أن رفاعة ربما وقع في التباس وخطأ بذكره أنه شاهد أمونة في بلاد الشايقية بمديرية دنقلا، والشاهد أن أمونة وخلاويها ونشاطها التعليمي، بمركز شندي مديرية بربر، فالتمست للشيخ رفاعة عذراً للسبب التالي).

والباحث لا يوافق الأستاذ الطيب فيما أورده من التباس وخطأ لرفاعة الطهطاوي، بالرّغم من أنه أخذ معلوماته مباشرة من أحفادها في وادي بشارة حديثاً، وذلك لأن الباحث اطلع على مخطوطة لدى

الخليفة شرف الدين أحمد الحسن بجهة (أبورنات) بتنقاسي في مركز مروي... عنوانها: (القول المستطاب في تاريخ الشايقية السوراب)، وهي مخطوطة قديمة فيها إشارة إلى خلاوي أمونة بت عبود بديار الشايقية في قريتها أوسلي بمركز مروي للغلمان واحدة وللبنات أخرى بجانب التكايا لاستضافة الحجاج..

وما ورد في تلك المخطوطة لا يتناقض مع قول الطهطاوي عن خلاوي أمونة بديارها، لأنها ولدت وعاشت صدر حياتها في بلدة أوسلي قبل هجرتها مع زوجها وجماعة من أهلها إلى وادي بشارة بناحية شندي، حيث مارست ذات النشاط الذي كانت تقوم به قبل هجرتها إلى وادي بشارة وقبل انتقالها إلى هناك بعد الفتح التركي للسودان، وصراع أهلها الشهير مع الباشا إسماعيل في كورتي ١٨٢٠م.

على أية حال فإن الباحث يرى أن الأستاذ الطيب كان له قصب السبق في تسجيل كم هائل من المعلومات عن أمونة بت عبود من أحفادها في وادي بشارة وغيرهم من المؤرخين الذين زودوه بتلك المعلومات إلاّ أن ذلك لا ينفي النشاط التعليمي والديني لأمونة في ديارها الأصلية وقبل المجيء إلى منطقة رحلتها الجديدة.

يقول (الطيب، ٣٤٧) والحجيج الإفريقي كانوا يقطعون المراحل بالإبل وعلى أرجلهم، ولهم في كل مرحلة منزلة معلومة، يجدون فيها الطعام والأمن، ومن محطات الحجيج القديمة الجموعية، أم درمان، السروراب والمتمة... الخ، ولما ظهرت خلاوي أمونة صارت دارها منزلاً للحجيج الإفريقي السوداني، وكل الذين يسافرون بالضفة الغربية. أما اعتناؤها بالدارسين فقد كان عظيماً، إذ كانت تنفق عليهم من زرعها، وكانت تملك أرضاً واسعة على النيل، ولديها نفر ممن يحسنون العمل الزراعي، وقد خصصت (ساقيتين) لزراعة القطن. وبعد حصاده تغزله نساء الحي، وطالبات القرآن. واستقدمت نساجين من جهة المتمة والجبلاب، وبعد النسيج توزعه للطلبة والطالبات، وما زاد تتصدق به على الحجيج وغيرهم.. وكانت تجمع جلود ذبائح النفقة – ما كانت تنفقه من ذبائح على ضيوفها – وتصنع منها النعال المعروفة بـ (الشقيانة)، توزعها على الطلبة والحجيج وكان اهتمامها بالحجيج كبيراً، وهم الذين نشروا اسمها في أماكن عديدة من بلادنا وغيرها... وبعد زمان صار كل شيء باسمها، فالقرية حلة أمونة، والجزيرة جزيرة أمونة، والسواقي سواقي أمونة، والنخيل نخيل أمونة... وحتى المقبرة المعروفة بمقبرة (رية) والتي دفنت فيها الشيخة أمونة تعرف عند بعضهم باسم (تربة أمونة). ويقول: (ص٣٤٨)....

هذا وكانت الشيخة تعيش عيشاً مُتَقَشِّفاً، كما عرف عنها الورع، وكانت لا تقابل الرجال إلاّ من وراء ستر، وظلت حتى آخريات أيامها تجاهد في خدمة كتاب الله ونشر المعرفة.. انتهى.

نتائج الدراسة:

١. توجد معلومات وافرة عن أصل ونشأة أمونة بت عبود في عدد من المراجع والمخطوطات.
٢. كان لأمونة بت عبود ورصيفاتها دور تعليمي وديني في عهد الحكم السناري والحكم التركي.
٣. شكّل طريق الحج عبر وادي النيل في الإقليم الشمالي فرصة كبيرة للتواصل الاجتماعي والديني. تمثل في:
   أ- زواج الشريف عبد الرحمن الشنقيطي من ابنة أمونة بت عبود.
   ب- زواج أحمد الهدي التجاني من عائشة حفيدة أمونة بت عبود، وابنة الشريف عبدالرحمن الشنقيطي.
٤. كان طريق الحج عبر وادي النيل في الإقليم الشمالي فرصة لأمونة بت عبود لإكرام واستضافة الحجيج التكرور من غرب إفريقيا وغيرهم، في تكاياها ومضايفها بوادي بشارة غربي شندي.
٥. هناك دور تعليمي ديني للحجاج الذين نزلوا بالإقليم الشمالي ضيوفاً في طريقهم إلى مكة المكرمة.

خاتمة:

يتضح من سيرة هذه العالمة العابدة أمونة بت عبود أنها كانت تقوم على أعمال الخير تعليماً للأبناء، وضيافة للزوار من حجاج غرب إفريقيا والمغرب العربي القادمين عبر تشاد إلى وادي النيل وغيرها، والذين يحتاجون إلى الراحة والزاد بعد الرحلة الطويلة التكرورية، وعناء السفر الراجل؛ الذي قصدوا أن يصلوا به إلى بيت الله الحرام لأداء شعيرة الحج.. وبلغت علاقتهم بها أن تزوج أحدهم ابنتها خديجة، التي أنجبت عائشة والدة الشريف محمد بن الشيخ أحمد الهدي التجاني.

لتؤدي أمونة هذه المهام؛ ولتصبح رائدة من رائدات التعليم – مع عدد كبير من بنات جيلها – وضيافة الحجاج؛ كان لابدَّ لها أن تؤهل نفسها علمياً ودينياً، وقد ورد أنها كانت تجيد الكتابة، والقراءة، وقول الشعر الفصيح؛ كأختها مهيرة التي تصغرها سناً، وكانت تقوم بالتدريس أحياناً لطلاب وطالبات خلوتها. وكان مشهور عنها أنها لا تقابل الرجال، ولا تحادثهم إلاّ من وراء ستار، وكانت تحفظ القرآن الكريم.

كانت أمونة ذات همة عالية، وإدارة محكمة في تتبع أعمالها الزراعية والصناعية والاجتماعية مع طلابها وزوارها من الحجيج الإفريقي، وكانت تشرف على زراعة أراضيها الواسعة، وتدير عدداً كبيراً من المزارعين في مواسم الزراعة، وحصاد القطن، وتشرف على صناعة الألبسة التي تقوم نساء الحي بمساعدتها في نسجها للطلاب الفقراء، والحجاج المحتاجين، وتجمع الجلود لتصنع منها أحذية لهم.

لا تستعين أمونة في تمويل إعاشة ضيوفها وطلابها بأموال زوجها؛ الذي كان علماً من أعلام مجتمعه، وله سطوة ودور قيادي وسط أهله السوراب، وكانت تعتقد أن أعمال الخير التي تقوم بها ينبغي ألّا تمول إلاَّ من نتاج عمل اليد، والكد الخاص، والجهد المباشر، والتعب الشخصي.

وعلى أي حال فإن كل الأخبار والمعلومات التي تواترت عن أمونة بت عبود؛ تفيد وتتحدث عن أنها أدت دوراً اجتماعياً، واقتصادياً، ودينياً، وتعليمياً متكاملاً بيّناً، يوضح أن المرأة عند أهلها السوراب كانت ذات مكانة، وموضع اعتداد واعتزاز.

المراجع:

١. الحسن، إبراهيم الخضر: الشيخ أحمد الهدي التجاني، (لمحة عن حياته ووقفة مع ديوانه)، ط١، دار جامعة إفريقيا للطباعة والنشر، ٢٠١٢م.

٢. الحسن، إبراهيم الخضر: الشيخ أحمد الهدي التجاني، (لمحة عن حياته ووقفة مع ديوانه) ط٢، ٢٠١٦م.

٣. حسن، الشفاء عبد القادر: تعليم البنات في السودان، شركة مطابع العملة السودانية ٢٠١٢م.

٤. خير الله، عبد الرحمن الشيخ محمد علي خير الله: الشيخ أحمد الهدي (تاريخه ونشأته ونسبه، ومناقبه)، د. ت.

٥. سعيد، عمر أحمد: مقابلة مع الكاتب بمكتبه، عمادة الدراسات العليا، ٢٠١٦/٥/٢٢م.

٦. الطيب، الطيب محمد: المسيد، ط٢، مؤسسة الصالحاني للطباعة، دمشق، سوريا، ١٩٩٩م.

٧. العاقب، محجوب محمد: ديار الشايقية. ج١، ط١، كرري للطباعة، ٢٠١٤م.

٨. عبيد، كمال محمد: العلاقات السودانية التشادية، الخرطوم، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، ط١، ٢٠٠١م.

٩. عثمان، إبراهيم القرشي (بروفيسور)، (رسالة خطية للباحث بتاريخ ٢٠١٦/٩/١٨م.. وأنظر الشيخ أحمد الهدي للباحث، ط٢، ٢٠١٦م.

١٠. علي، عز الدين سليمان: القول المستطاب في تاريخ الشايقية السوراب، (مخطوطة).

١١. كامل، رجاء: أمونة بت عبود رائدة التعليم في السودان، جريدة الصحافة السودانية، العدد ٧٤٨٩، ٢٠١٤/٦/١٣م.

١٢. المهدي، رباح الصادق: ورقة عمل عن تعليم المرأة، ٢٠١١م.

١٣. النور، الفاتح: التجانية.. والمستقبل، دار جامعة إفريقيا العالمية للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١١م.